

فلسفة سقراط*

رأينا [فيما سبق] أن همَّ الفلاسفة الذين سبقوا سقراط كان موجهاً إلى الكون ، وإيجاد السبب الأول الذى نشأ عنه واتخذ منه مظاهره المختلفة ؛ وأتى من بعد هؤلاء السوفسطائيون الذين هدموا البحث الموضوعى بشكوكهم ووضعوا مكانه البحث الذاتى واتخذوه أساساً يشيدون عليه قواعد الأخلاق وأسس العلوم ، وكان من نتيجة هذه الذاتية أن اضطربت نظريات الأخلاق وشوَّهت الحقائق ، فقد كان يصح في نظرهم أن يقتنع الفرد بحقيقة ما ما دام يراها حقيقة ، ولو اختلف الناس معه وكان اختلافهم صواباً وحكمة !

وانتهت هذه الفلسفة إلى سقراط ، فدرسها دراسةً عميقةً واستخلص منها فلسفة ، ولو أنها تُمَّتْ إلى الماضى بصلات قوية ، إلا أنها مغايرةٌ له في أهم مظاهرها ، بل هى حد فاصل بينه وبين الفلسفات الإنسانية العظيمة التى تأسست عليها واستسقت منها ؛ وكانت طريقته فى نشرها أن يحاور الناس فى الطريق ، يتقدم إليهم متسائلاً متجاهلاً ، ثم يُشعرهم بجهلهم ويدخل الشكَّ إلى قلوبهم ، وينتهى الحوار بأن يبذر فى

* مجلة المعرفة ، أكتوبر ١٩٣١ م .

نفوسهم بذور المعرفة الصحيحة ؛ وهو في كل محاوراته لا يتعد بهم عما يتصل في عقولهم من مسائل الحياة ، ذلك لأنه لم يكن يفرق بين تعاليمه الفلسفية وبين الحياة نفسها .

وتختلف فلسفة سقراط عن فلسفة القدماء في أنها تركت التجوال فيما وراء الطبيعة والتنقيب في العماء الأول ، وهبطت إلى الأرض تتخلل نفس الإنسان . فأهم أغراضه أن يعرف نفسه ، ويعرف الفضيلة التي شغلت من أبحاثه المحل الأول ، وكان يفخر بجهله المظاهر الخارجية ، وينسب ما يُعزى إليه من تفوق عقلي إلى هذا الجهل .

وتختلف فلسفته كذلك عن فلسفة السوفسطائيين ، فقد اتخذ نفس الأساس الذي اتخذوا ليعنى عليه الحقائق ، إلا أنه وصل إلى نتائج مضادة تمام التضاد مع ما وصل إليه السفسطائيون . هم اتخذوا من الذاتية وسيلةً يهدمون بها الحقائق الخارجية ، واتخذها هو لتقرير الحقائق الخارجية . كان يسمو بالفكرة الفردية إلى مبدأ عام ثابت ، له حقيقته وله استقلاله عن عقول الأفراد ، وكان يصل إلى هذه الحقائق معتمداً على الاستدلال والتعريف المنطقي ، وقد قال أرسطو : « مَأْتَرَتَانِ تعزوان إلى سقراط : وسيلة الاستدلال ، والتعريف المنطقي . . وهما اللذان بُنى عليهما العلم » .

ولكى نشرح تلك النقطة الهامة نقول : إن سقراط كان ينتقل في محاورته من بحثٍ سلبيٍّ إلى بحثٍ إيجابيٍّ ، كأن يسأل الناس كما يسأل

الجاهل المتعطش إلى المعرفة ، فإذا أفضوا إليه بما تحويه أدمغتهم من المعارف ، صب عليهم سيلاً من الأسئلة توقعهم بين الحيرة والارتباك ، وتكشف لهم عن جهلهم حقائق الأمور ، وتبين لهم أن من الأشياء ما يظهر سهلاً بسيطاً لا يحتاج لبحث ، وهو في الواقع من أعقد الأمور وأعوصها . هذا هو الجزء السلبي ، وإن كثيراً من محاورات سقراط التي وصلت إلينا عن طريق أفلاطون تنتهي عند هذا الحد .

وفي أثناء محادثته مع الذي يحاوره كانت تلوح له أفكار لم تكن تخطر له على بال ، فهو يناقش عدة أمثلة ، ويلاحظ ما بينها من تباين وتشابه ، واتصال وانقطاع ، ثم ينتهي به البحث والاستدلال إلى تقرير الفكرة العامة كالعدل والسعادة وغيرهما ، وهذا استدلال يرمى إلى تعريف منطقي شامل جامع مانع .

قال أرسطو : « اهتم سقراط بفحص طبيعة الفضيلة كأنه مسألة مسائل الفلسفة ، ولهذه الغاية سأل نفسه : ما العدل ؟ وما الإرادة ؟ لأنه كان يعتقد أن الفضيلة معرفة » .

ولما كانت الفكرة يصح اتخاذها مرشداً لجميع الأعمال التي تصدر عن أجزائها ، كانت الفكرة هي الكائن الحقيقي للأشياء .

ولسقراط رأي في الأخلاق كان له أثر جليل في العالم النظري والعالم العملي ، كان يرى أن الفضيلة تنبع من المعرفة والعقل وحسن التمييز ،

فالفعل الذى بلا إدراك عَمَاءٌ يتناقض مع نفسه ، والفعل الذى باعته الإدراك لابد آتٍ غايته ، وينبنى على ذلك أن ليس هنالك شر يقع مع الإدراك ، أو خير من غير الإدراك ؛ وإنما الإدراك الناقص هو الذى يهوى بالناس إلى أعماق الرذائل . . ومن هنا نشأ القول بأن الإنسان خَيْرٌ بطبيعته ، وإنه يُساق لارتكاب الرذائل رغم إرادته ، ومن يفعل الشر ويصدر ذنبه عن معرفة وإدراك خير من الذى يفعله وهو يجهله ، لأنه فى هذه الحالة صنع الخير بلا معرفة ، أو بمعنى آخر : بلا فضيلة ؛ أما فى الحالة الأولى فقد أسىء استعمال الفضيلة ، ولكنها موجودة على كل حال .

وكانت نتيجة هذا الرأى منطقياً هى إيجاد وحدة لجميع الفضائل ؛ ولما كان فعل الخير هو فى الواقع إدراك عقلى ، انتهينا إلى أن هذا الإدراك هو واحد مهما كان اتجاهه مصوباً إلى أى موضوع من مواضيع الفضيلة .
وثمة نتيجة أخرى عملية ، وهى تعليم الفضيلة ما دامت معرفة ، وإمكان نشرها بين جميع الأفراد بالممارسة .

وهكذا وضع سقراط الحجر الأساسى لنظرية الأخلاق ، ولكنه لم يحاول السمو بها ؛ وكان يحاول الوصول إلى السعادة عن طريق الفضيلة ، ونهاية السعادة فى نظره أن يسمو فوق مطامع الحواس ، وأن يتحرر من الرغبات فيرتفع إلى مصاف الآلهة ، وأن يثق بقوة الروح .

وترى من وسيلة سقراط أنه لم تكن له مدرسة ، وإنما كان له تلاميذ ، وقد اختلف هؤلاء الأتباع في فهم فلسفته إلى حد التناقض مع بعضهم البعض ، ومعهم ومع سقراط نفسه .

وقد أنشأ ثلاثة من هؤلاء الأتباع أهم المدارس ؛ الأولى : المدرسة الكلية ، وتتفق تعاليمها مع تعاليم سقراط في أن الفضيلة معرفة يمكن تعليمها ، وهى مبنية على التخلص من الرغبات كلها حتى يُتَوَصَّلَ إلى السعادة ، وقد دعا ذلك بعض أتباعه إلى الانزواء عن العالم والإزراء بقوانينه وتعاليمه ، ومن أشهر هؤلاء ديوجونيس .

والثانية : المدرسة القورينائية ، ومؤسسها أرسططيس ، وكان يقول : إن السعادة هى غاية الوجود ، وفهم منها أنها اللذة ، فكل ما يوصل إلى اللذة خير ، إلا أنه يلزم لذلك ألا يترك الإنسان لشهوته العنان فتتحكم فى نفسه .

والثالثة : المدرسة الميغارية . وقد عرِّفت الخير بأنه الكائن النقى ، فليس مذهبها إلا تعبيراً سقراطياً طرأ على فكرة الإلئين .

لم تتمم هذه المدارس فلسفة سقراط ، وإنما الذى تممها وزاد عليها وكَوَّنَ نظاماً فلسفياً عامّاً هو أفلاطون . ولنترك تلخيص فلسفته إلى مقال آخر .

